إذا كانا كافرين لا يحضران صلاة العصر فيقسمان بالله أي فيحلفان بالله قال الشافعي الأيمان تغلظ في
الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة
بين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وفي بيت المقدس فعند الصخرة وفي سائر البلاد في أشرف
المساجد وأعظمها إن ارتبتم يعني إن شككتم أيها الورثة في قول الشاهدين وصدقهما فحلفوهما
وهذا إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع لا نشتري به ثمنا
قليلا يعني لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده ولو كان
ذا قربى يعني ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم ولا
نكتم شهادة الله إنما أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها إنا إذا لمن الآثمين يعني
إن كتمنا الشهادة أو خنا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا
تميما وعديا وحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئا مما دفع إليهما فحلفا على ذلك
فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم ظهر الإناء بعد ذلك قال ابن عباس وجد الإناء بمكة فقالوا
اشتريناه من تميم وعدي وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بني سهم فأتوهما في ذلك فقالا إنا كنا
اشتريناه منه فقالوا ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئا من متاعه قالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر
لكم فكتمناه لذلك فرفعوهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن عثر يعني فإن اطلع وظهر والعثور الهجوم
على أمر لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد خفي عليه قيل قد عثر عليه على أنهما استحقا
إثما يعني الوصيين ومعنى الآية فإن حصل العثور والوقوف على أن الوصيين كانا استوجبا الإثم بسبب
خيانتهما وأيمانهما الكاذبة فآخران يعني من أولياء الميت وأقربائه يقومان مقامهما يعني مقام الوصيين
في اليمين من الذين استحق عليهم يعني من الذين استحق عليهم الإثم وهم الورثة والمعنى إذا ظهرت
خيانة الحالفين وبان كذبهما يقوم اثنان آخران من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته الأوليان
يعني بأمر الميت وهم أهله وعشيرته فيقسمان بالله أي فيحلفان بالله لشهادتنا أحق من
شهادتهما يعني أيماننا أحق وأصدق من أيمانهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين ولما نزلت هذه
الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان وهما من أهل الميت وحلفا بالله بعد العصر ودفع
الإناء إليهما وإنما ردت اليمين على أولياء الميت لأن الوصيين ادعيا أن الميت باعهما الإناء وأنكر ورثة الميت
ذلك ومثل هذا أن الوصي إذا أخذ شيئا من مال الميت وقال إنه أوصى له به وأنكر ذلك الورثة ترد
اليمين عليه ولما أسلم تميم الداري بعد هذه القصة كان يقول صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الإناء
فأنا أتوب إلى الله وأستغفره وقوله تعالى ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني ذلك الذي
حكمنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أدنى أي أجدر وأحرى أن يأتوا بالشهادة على وجهها
يعني يأتي الوصيان وسائر الناس بالشهادة على وجهها فلا يخونوا فيها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد
أيمانهم أي وأقرب أن يخاف الوصيان أن ترد الأيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم
فيفتضحوا ويغرموا فربما لا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم واتقوا الله أي خافوا الله أن تحلفوا
أيمانا كاذبة أو تخونوا أمانة واسمعوا يعني المواعظ والزواجر وقيل معناه واسمعوا سمع إجابة
والله لا يهدي القوم الفاسقين يعني والله لا يرشد من كان على معصيته وهذا تهديد وتخويف ووعيد
لمن خالف حكم الله تعالى أو خان أمانته أو حلف أيمانا كاذبة وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من
الآيات نظما وإعرابا وحكما والله أعلم بأسرار كتابه قوله عز وجل يوم يجمع الله الرسل قال
الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديره واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل وقيل تقديره والله لا يهدي
القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل أي لا يهديهم إلى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل
إنها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وذلك يوم القيامة فيقول ماذا

أجبتم

أجبتم يعني فيقول لهم ماذا أجابتكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار
الدنيا إلى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ الأمم لأن الأنبياء الذين كذبوهم قالوا يعني الرسل لا علم
لنا قال ابن عباس معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك
فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ وعلى هذا القول إنما نفوا العلم عن أنفسهم وإن كانوا علماء لأن علمهم صار
كلا علم عند الله وقال في رواية أخرى معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا وهذا القول فيه حسن الأدب وقيل
معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا وقيل معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة
أمرهم لأنا إنما نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعدنا ولا نعلم ما
أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر عن عيسى عليه السلام بقوله وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما
توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ومنه ما روي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليردن علي الحوض
رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني فأقولن أي رب أصحابي فيقال لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك
زاد في رواية فأقول سحقا لمن بدل بعدي أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالا وزلازل
تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم
يشهدون على أممهم بالتبليغ وهذا فيه ضعف وفيه نظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء لا يحزنهم الفزع الأكبر
وذكر الإمام فخر الدين وجها آخر وهو أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل
وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا أن قولهم لا يفيد خيرا ولا يدفع شرا فرأوا أن الأدب في السكوت وفي
تفويض الأمر إلى علم الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب يعني إنك تعلم ما غاب
عنا من باطن الأمور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن وقيل معناه إنه لا يخفى عليك ما عندنا من
العلوم وإن الذي سألتنا عنه ليس يخفى عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات
على تفاوتها الذي لا يخفى عليه خافية وبناء فعال للتكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى
كما يجوز إطلاق الخلاق عليه قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك قال بعضهم
إن إذ قال الله يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ماذا أجبتم توبيخ للأمم المكذبة
ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجا وافتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون
أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أنما كان طعنهم في أنبيائهم التكذيب لهم وطعن هؤلاء
النصارى في عظمة الله حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد فذكر الله في هذه
الآية من أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في ذكر هذه الحكاية
تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم وقيل فائدة ذلك إسماع الأمم
يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة وقيل موضع إذ رفع بالابتداء على القطع ومعناه
اذكر إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه
في هذه الآية والمراد منه ذكرها شكرها وعلى والدتك يعني لنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى
أنبتها نباتا حسنا وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى
إذ أيدتك بروح القدس يعني بجبريل عليه السلام لأن القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل
التشريف والتعظيم كإضافة البيت إليه وناقة الله وقيل أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح
تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية
فخصه الله بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة تكلم الناس في المهد يعني تكلمهم
طفلا في حال الصغر وكهلا يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين
وفي هذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله قال ابن عباس أرسل الله عيسى عليه السلام
وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله إليه وإذ علمتك الكتاب والحكمة يعني

Copyright © King Saud University